

السيرة - فقه السيرة النبوية - الدرس (٢٨-٥٧) : الهجرة -٣- لن نمكن في الأرض قبل أن نتنصر على أنفسنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٢-٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

إشارة القرآن إلى هجرة النبي

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فقه السيرة النبوية، ومع موضوع بدأنا به في الدرس الماضي، وهو هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب.

أيها الإخوة، أشار القرآن الكريم إلى هجرة النبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى:

(إِنَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة التوبة)

حقائق مهمة لهذه الأمة

إله النبي هو إلهنا

أيها الإخوة، الحقيقة الأولى، ونحن في أمس الحاجة إليها أنّ إله محمد صلى الله عليه وسلم الذي نصره في الهجرة هو إلهنا، وكما نصر نبيه وأصحابه الكرام يمكن أن ينصرونا.

تقديم أسباب النصر

ولكن إذا قدمنا الأسباب التي نستحق بها أن نتنصر، قال تعالى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٦)

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية: ٧)

لذلك نسال الله أن نتنصر على أنفسنا حتى نتنصر لله، حتى نستحق أن ينصرنا على أعدائنا.
هذه أول حقيقة:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

من هو الثاني؟ صديق الأمة.

" ما طلعت شمس على رجل بعد نبي خير من أبي بكر ".
هو صديق المسلمين.

((أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر))

[رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي حُجيفة]

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

[ورد في الأثر]

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

الله عز وجل ينتظر منا أن ننصر دينه، فإن تخاذلنا نصر هو دينه، وحرماننا هذه المرتبة العلية في نصر دينه، لذلك لا تنسوا هذه الكلمة: لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله، فقد ينصره الله بالرجل الفاجر، ولكن لنقلق على أنفسنا فيما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له، أعلى مرتبة ينالها الإنسان أن يكون جندياً للحق، وأخس مرتبة يكونها الإنسان أن يكون في خندق مناهض للحق، لعل أشقى البشر من عاندوا الرسل، أبو بكر وعمر هم في أعلى عليين، وأبو جهل وأبو لهب في أسفل سافلين، هم في مزبلة التاريخ، بين أن تكون في أعلى عليين إذا نصرت الحق وأهله، وبين أن يكون الإنسان في أسفل سافلين إذا كان في خندق معادٍ للحق.
هنا ملمح يحضرنى، لماذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

هذه آية فيها تساؤل كبير من أجل امرأتين ضعيفتين.

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

لو أن امرأتين انتقدتا النظام هل يعقل أن تستنفر القوى البحرية والجوية والبرية، وكل القوى؟ مستحيل! ما معنى الآية؟ معنى الآية إذا كنت في خندق معادن للحق فاعلم من هو الطرف الآخر، أشقى إنسان من وقف في خندق معادن للحق، من أراد أن يطفى نور الله

إخواننا الكرام، بربكم لو أن إنساناً توجه إلى الشمس، ونفخ بغمه يريد أن يطفئ نورها بماذا نحكم على عقله؟ بالجنون.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة الآية: ٣٢)

المصائب فرزٌ ومنحٌ ومنح

إذا كان ضوء الشمس يستحيل أن تطفئه، فهل تستطيع أن تطفئ نور الله؟ لذلك كلمة أقولها لكم لعلمهم قاسية: ما ضر الصحابة نبج الكلاب، وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم، والذي حصل من تطاول على سيد الخلق وحبیب الحق فيه خير لا يعلمه إلا الله، ولكن في المستقبل، لأن كتاباً صدر مرة وصف بيوت النبي وصفاً لا يليق بمقام النبوة، (سلمان رشدي)، ثم أسلم بسبب هذا الكتاب ٢٠ ألف بريطاني، لأنهم ما صدقوا هذا الوصف، فبحثوا عن الحقيقة فاهتدوا، وأنا أطمئنكم أن مئات من الألوف سوف يبحثون عن الحقيقة، وسوف يدخلون في دين الله أفواجا، وأن كل شيء وقع وأراده الله، وكل شيء أراد الله وقوعه، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)
(وَكُلُّ شَيْءٍ رُبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذُرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

إخواننا الكرام، الشيطان الذي هو رأس الإضلال في الكون، والذي يريد دائماً أن يغوي الإنسان، وأن يدعوه إلى المعصية، وأن يصرفه عن الطاعة، لو أنه يستطيع أن يفعل ما يريد لما أمده الله إلى يوم يبعثون، ولكن لأن الله يوظف كيد الخير المطلق ما أبقاه يتوهم أنه يضل البشر، كل شيء فيه شر هو شر نسبي، موظف للخير المطلق، والشر المطلق لا وجود له في الكون،

(فَذُرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

وهذه عملية فرز.

(وَكَتَبْنَا لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ لِيُذَكَّرُوا وَمَا يَشْكُرُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه عملية فرز، وحديث الإفك عملية فرز، المؤمنون الصادقون ظنوا بأنفسهم خيراً، والمنافقون فرحوا بهذه الأخبار.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٧٩)

عملية الفرز والامتحان والابتلاء مستمرة طوال الحياة، وهذا الذي حصل نوع من الابتلاء، ونوع من الامتحان، ونوع من الفرز، لذلك الإله الذي نصر محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام موجود، وهو إلها، ولماذا لا ينصرنا؟! وزوال الكون أهون عليه من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

(سورة غافر)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور الآية: ٥٥)

(وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ)

(سورة الصافات)

ومرة ثانية: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، ولكن لا بد من دفع الثمن، نحن نقرأ في التاريخ أن الفرنجة حينما احتلوا القدس ذبحوا ٧٠ ألفاً من المسلمين، وكتاب التاريخ يقفزون فجأة إلى أن صلاح الدين فتح القدس، ولم يسفك دماً، وكأنه فعل معجزة، وكأنه فعل أسطورة، وهذا لأن صلاح الدين الأيوبي استحق النصر بعد خمسين عاماً من إزالة المنكرات، ومن تعليم الطلاب العلم الشرعي، هناك جهود جبارة بذلها هذا القائد البطل توجت بفتح القدس، فإذا أغفلنا هذه الجهود شعرنا أننا أمام أسطورة، أو أمام معجزة، وليس هناك أساطير ولا معجزات، لا ننتصر إلا بالصلح مع الله، لا ننتصر إلا بالتوبة، ما نزل بلاء لا يرفع إلا بالتوبة.

(أَوْلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

سيدنا صلاح الدين حينما أخرج الغزاة من الشرق قال: لم يعودوا ما دمنا رجالاً، لكنهم عادوا، عادوا مرتين، عادوا في المرة الأولى حينما دخل قائد الجيش الفرنسي إلى مقامه، وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين، وعادوا ثانية إلى العراق، وإلى أفغانستان، ولسان حالهم يقول: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

النصر له ثمن

النصر له ثمن، ثمنه طاعة الله عز وجل، أما توقع النصر من دون طاعة فغباء وسذاجة، أما انتظار معجزة فغباء وسذاجة، أما انتظار أن يأتي شيء غير مألوف فننتصر غباء وسذاجة. أيها الإخوة،

(إِنَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

معية الله عامة وخاصة

ومعنى: إن الله معنا، ودققوا في هذا الكلام، والكلام كبير، وخطير، معية الله معيتان:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية: ٤)

هذه معية عامة، يعني معكم بعلمه فقط، هو مع الكافر، مع المنافق، مع الملحد مع العاصي، مع الفاسق، مع المؤمن بعلمه

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

إذا وضع إنسان في محله التجاري آلة تصوير، وهو في مكتب في الطابق الثاني، وهو يرى كل من يدخل، وكل من يخرج، هو مع كل الزبائن، يرى بعلمه فقط، لكن إذا جاءت المعية خاصة فلها معنى رائع، لها معنى نحتاجه نحن اليوم، إذا قال الله: إن الله مع المؤمنين، فإن الله معهم بالتأييد والنصر، والحفظ، والتوفيق، إن الله مع المؤمنين، المعية الخاصة لها معناً إيجابياً يحتاجه المؤمن أشد الاحتياج.

(إِنَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

إخوتنا الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بكل الأسباب، وأغلق كل الاحتمالات، وسد كل الثغرات، وغطى كل الحاجات، مع أنه الإنسان الأول الذي يستحق النصر، لذلك المنهج النبوي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أخذ بالأسباب كلف من يأتيه بالأخبار، وكلف من يمحو الآثار، وكلف من يأتيه بالطعام، وكلف من يدلّه على الطريق، ولم يدع ثغرة إلا وغطاها، سار باتجاه الساحل، واختبأ في غار ثور ليخف الطلب، ولماذا وصلوا إليه؟ ولماذا سمح الله لهم أن يصلوا إليه؟ ليبين الله لنا أن اعتماد محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن على الأسباب وقد أخذ بها، لكن اعتماده كان على رب الأرباب، لذلك لما وصلوا إليه، وقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله لو نظر أحدهم لموطأ قدمه لرأنا قال:

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِئُهُمَا))

[أخرجه البخاري عن أبي بكر]

إذاً: يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، إذاً إذ يقول لصاحبه وقد وصل المطار دون إلى الغار:

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

هذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء عطاء لا يوصف، إذا أنزل الله على قلبك السكينة أنت أغنى الناس، وأنت أقوى الناس وأنت أحكم الناس، وأنت أعلم الناس، وأنت أكرم الناس، فإذا حجبها عنك وكانت الدنيا بيدك أنت أفقر الناس، وأنت أجهل الناس، وأنت أضعف الناس، وأنت أبعد الناس عن الصواب.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

تسكن لها، ترتاح لها، تسعد بها، ترضى بها، تطمئن بها،

(عَلَيْهِ وَأَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

والله عز وجل عنده جنود لا تراها.

مرة أراد أعداؤنا أن يخطفوا عدداً كبيراً جداً من المصلين ليلة القدر في جنوب لبنان، وهيئوا خطة محكمة جداً، وضعوا في طائرتين مروحيتين ١٢٥ ضابط مغوار، كل واحد كلف تدريبه ٥ ملايين، يتقن اللغة المحلية، والعامية، والسلاح الأبيض، والصراع الياباني، واستخدام أعقد الأجهزة والأسلحة، الخطة أن يخطفوا المسلمين من المساجد، ليأخذوهم رهائن يبادلون عليهم أسراهم الذين أسروا في جنوب لبنان،

(إِنَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ)

فوقعت الطائرة الأولى على الطائرة الثانية فوق مستعمرة في إسرائيل، ومات كل الضباط، ولم تُمنَ إسرائيل بهزيمة بشرية في نخبة ضباطها من تاريخها منذ أن أسست وحتى الآن كهذه المأساة، لأن الله تدخل وانتهى كل شيء، اعترفوا بتسعين، ثم أوردوا البقية في حوادث طرق. إن الله عز وجل إذا كنا معه كان معنا، وإذا اصطلحنا معه نصرنا، وإذا كنا معه كنا أقوياء، وإذا كنا أقوياء لن نستطع العدو أن يسخر من نبينا، ولا أن يندس مصحفنا، ولا أن يستفزنا بأن تقف امرأة وتخطب في كنيسة خطبة الجمعة، وتصلي بالرجال، وعلى مرأى خمسين مندوب وكالة صحافة، هذا استفزاز للمسلمين.

الذي يحصل الآن استفزاز، أنتم ضعفاء، سندس مصحفكم، ونسخر من نبيكم، لو كنا أقوياء لما تجرؤوا، لو كنا مطبقين لقوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية: ٦٠)

لما تجرؤوا.

المعركة حياة أو موت

أيها الإخوة، معركتنا مع أعداءنا معركة حياة أو موت، معركة وجود أو لا وجود، فلا بد من أن نتعاون، وأن تصطلح، وأن نعود إلى الله.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

يقول قائد الطائفة العليا كما هو مسجّل في الصندوق الأسود في آخر كلمة قالها: أنا أسقط، ولا أدري لم أسقط، وليس ثمة سبب في الطائفة يدعو إلى السقوط، الله عز وجل عنده جنود لا يعلمها إلا هو، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))

[متفق عليه عن جابر]

لكن أمته حينما تركت سنته هزمت بالرعب مسيرة عام، نخاف من أي تهديد، وننسى أن الله بيده كل شيء.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام،

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

أحد الجنود أن يلقي الله في قلبك الخوف، أحياناً يقلل عدوك بك، أو التكتير، وإلقاء الرعب، وإلقاء الخوف.

التبنيه إلى معنى خطير في الآية

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

لو أن واحداً من الإخوة الكرام قرأ الآية على النحو التالي متوهماً أن الواو الثانية حرف عطف، وقال: وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، المعنى خطير، ولا يليق بمقام الألوهية، أي: جعل كلمة الذين كفروا السفلى بعد أن كانت عليا، وجعل كلمة الله العليا بعد ما كانت لا سمح الله سفلى، هذا المعنى مستحيل، انظر إلى ضمة واحدة تغيير المعنى.

إذا كان الواحد ضعيفاً في الإعراب ووقف، وتمثل بقول أحد الأصحاب الكرام:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

إلى جهنم وبئس المصير، والبيت:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً.

شهاد إلى جنة عرضها السماوات والأرض، بين جنة عرضها السماوات والأرض وجهنم وبئس المصير حركة واحدة، بين أن تقول: حين أقتل مسلماً، أو حين أقتل مسلماً فرق.

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

الواو ليست واو عطف، هي واو استئناف، لو عددناها واو عطف كان المعنى: وجعل كلمة الله هي العليا بعد أن لم تكن عليا، هذا مستحيل، أما الواو هنا فواو استئناف:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

وقف:

(وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً،

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، هذا واضح.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أيها الإخوة،

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

من أدق معاني عزيز حكيم أي أن كل الخلق يحتاجونه، بل إن كل شيء يحتاجه في كل شيء،

(عَزِيزٌ)

الشيء العزيز إذا احتاجه الناس، وكان نادراً، احتاجه الناس وكان نادراً، أما إذا قلت:

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ)

يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويستحيل أن تحيط به،

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

إخواننا الكرام، في معامل الحديد روافع أساسها مغناطيسي، سطح حديد كبير جداً محاط بوشية كهربائية، فإذا وضع هذا السطح فوق عشرين طنًا من الحديد حملها، ونقلها إلى مكان آخر، ولا يستطيع إنسان أن ينزع عن هذه الرافعة قطعة، لكن العامل الذي يدير هذه الرافعة لو ضغط على زر عشر الميلّي وقطع الكهرباء كل هذا الحديد الذي تحمله الرافعة يسقط.

إن رأيت قويا، متغطرساً، طاغية، لثيماً، خسيساً، معتدياً، مجرماً، سفاحاً بثنائية واحدة خثرة بالدماغ ينتهي، ألم تروا ذلك؟ بثنائية واحدة انتهى، الاسم المخيف انتهى، لأن الإنسان في قبضة الله، ومعنى قوله تعالى:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال الآية: ٥٩)

يعني أن الكافر في قبضة الله، في أي لحظة هو في قبضته، معنى:

(سَبَقُوا)

أي تفلتوا من عقاب الله، أو أرادوا شيئاً ما أراد الله، لذلك يقولون: خطة الكافر تستوعبها خطة الله، لهذا أي شيء وقع إرادته الله، وأي إرادته الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: ٥١)

قد يصنع مصنع الطائرات طائرة، ويبيعهها، أمر هذه الطائرة ليس بيد مدير المعمل، يقول لك بعته، وأمرها ليس بيدي، لكن الله عز وجل يقول:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: ٥١)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: ٨٤)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد سكينه، التوحيد أمن التوحيد راحة، التوحيد سعادة، التوحيد ثقة بالله، التوحيد تفاؤل، ونحن في هذه الظروف الصعبة نحتاج إلى التوحيد، نحتاج أن لا نرى مع الله أحداً.

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: ١٦)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال)

أيها الإخوة الكرام، هذه آية الهجرة:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

هناك زيادة قرأتها مرة في كتاب لا أذكره، يبدو أن عين أحد المطاردين وقعت على عين الصديق، فقال: يا رسول الله، لقد رأونا، فقال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب، ماذا فقدت من وجدك، وماذا وجد من فقدك.

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيدته السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

أيها الإخوة الكرام، هذا هو التوحيد:

((أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرفقة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع، أكفكم ملوكم))

[رواه الطبراني عن أبي الدرداء]

((فإن صلاحهم لكم صلاح))

[رواه الطبراني عن شيخه الحسين بن محمد بن مصعب الأسناني]

آية الهجرة موضوع هذا الدرس.

وكان حقاً علينا نصر المؤمنين

أيها الإخوة، النصر بيد الله، وإن كنت بطلاً فحقق شروط النصر، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

إذا كنت بطلاً تحقق شروط النصر، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد ألا ينصر عباده المؤمنين، ونحن في محنة، وإن شاء الله هذه المحنة تتبعها منحة، ونحن في شدة وإن شاء الله تتبعها شدة إلى الله، ونحن في العناية المشددة، نحن نمثل إنسان معه التهاب معدة حاد، وشفاء هذا المرض محقق، وسهل جداً، ولكن يحتاج هذا المريض إلى حمية تامة، بينما الطرف الآخر معه ورم خبيث، ولا أمل في شفائه، لو أن الطرف الآخر سأل طبيباً ماذا آكل؟ يقول له: كل ما شئت.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ فَاذًا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

لكن الذي معه التهاب المعدة حاد، الطبيب المخلص يقيم الدنيا عليه ولا يقعدا إذا أكل أكلة تؤذي التهاب معدته، لذلك نحن في العناية المشددة، ونحمل حملاً ثقيلاً، لأن الله ينتظر منا أن نتوب إليه.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

وفي درس قادم إن شاء الله ندخل في تفاصيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أن كان الدرس الماضي كان هجرة أصحابه إلى المدينة.

والحمد لله رب العالمين